الناحية الوجدانية في حياة الإنسان
أصولها الفسلجية ومقوماتها الاجتماعية

الدكتور نوري جعفر

الناحية الوجدانية في حياة الإنسان ، التي تعبر عن نفسها في تصرفاته على هيئة عواطف أو مشاعر ، أو انفعالات . هي شكل من أشكال علاقاته بالبيئة التي يعيش فيها الطبيعية والإجتماعية : إنها تعبيرات عن مواقفه إزاء العوامل البيئية التي يتعرض لها طول حياته . وقد ثبت ان جميع أشكال إرتباطات الإنسان ببيئته مصحوبة دائماً بمشاعر معينة سلبية أو إيجابية . معنى هذا ان المشاعر تنقسم على وجه العموم ، من ناحية طبيعة الموقف الذي يتخذه الإنسان إزاء ما يحيط به ، إلى مجموعتين هي المشاعر الإيجابية كالتفاؤل والثقة بالنفس والبهجة والحب ، والمشاعر السلبية العناءة مثل الكآبة والقلق والحزن والتشاؤم وما يجري مجراها .

تعتبر المشاعر من الوظائف العقلية الدنيا لأن مراكزها العصبية واقعة

في القسم الأسفل من الدماغ ولأنها كذلك عمليات عقلية دنيا لم تساهم مساهمة إيجابيـــة مباشرة في تقدم الحضارة الإنسانية إلاّ من حيث كونها عوامل حفز الفكر وتنشيطه . تقابل هذه الوظائف العقلية الدنيا وظائف عقليـــة هي التذكر والتفكير والإنتباه والخيال واللغة . وقد سميت هذه الوظائف عقلية علمياً لأن مراكزها العصبية واقعة في القسم الأعلى من الدماغ — القشرة المخية cerebral cortex — ولكونها أيضاً الأساس الفكري الذي ساعد الإنسان على التغلب على الطبيعة وإيجاد الحضارة الإنسانية . ولا بد من الإشارة هنا إلى ان الوظائف العقلية مترابطة متلاحمة عملياً ومتبادلة الأثر رغم تخصصها . كما ان هذه الوظائف المتلاحمة المتكاملة ترتبط بدورها بجميع وجوه نشاط الجسم الأخرى ارتباطاً عضوياً غير قابل للإنعزال إلاّ لأغراض الدراسة النظرية. والنشاط الجسمي بأسره العقلي وغير العقلي مرتبط بدوره أوثق ارتباط بالظروف البيئية الطبيعية والإجتماعية التي يعيش فيها الإنسان . وأداة ربط الإنسان ببيئته هي الجهاز العصبي بأقسامه الثلاثة : الطرفي أو المحيط والمركزي والمستقل . ومن الممكن لغرض التوضيح المبسّط أن نشبه الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والحبل الشوكي) . بجسم حي له ذراعان تمتدا إحداهما نحو البيئة الخارجية لتربط الجسم بها (الجهاز العصبي المحيط أو اعضاء الحس) وتمتد الأخرى نحو داخل الجسم لتنظم وظائف الأحشاء .

والعلاقة بين العواطف والفكر متبادلة الأثر وان العواطف في حقيقتها هي محركات السلوك أو دوافعه الأساسية . ومثلها في هذا الشأن مثل الوقود بالنسبة للنار . معنى هذا ان الفكر لا يحدث إلاّ إذا استلزمه حالة انفعالية خاصة يمر بها الإنسان أثناء مواجهته مشكلة ما يتحتم عليه حلها . وحتى النكوص عن مواجهة المشكلة هو حالة انفعالية يمر بها الإنسان تتميز في انه اخفق في مواجهة تلك المشكلة مواجهة سديدة

أو صائبة . غير ان مهمة الإنفعالات تنتهي عند إثارة الفكر وذلك لأن الإنفعالات متسرعة في طبيعتها مندفعة لا تسمح لصاحبها ان ينظر في عواقب الأمور بتؤدة أو روية أو إتزان وهي صفات تقع في صميم عملية التفكير لأن الفكر نشاط ذهني ناقد أو فاحص أو ممحّص يستبعد القيام بعمل طائش ، أي ان الفكر يتريث ويستقصي ويستلزم نشوء رجع مؤجّل أو استجابة تبقى في الذهن إلى أن تستوفي شروطها الموضوعية اللازمة لتخرج إلى حيز الوجود على هيئة تعرف يقوم بها الفرد . وفي علاقة الفكر بالإنفعالات تبدو أهم مفارقاته . فهو لا يحدث إلاّ إذا سبقه موقف عاطفي معين ولكنه لا ينجز واجبه على الوجه الأتم إلاّ إذا تحرر من العاطفة التي أثارته ونظر إلى المسألة التي بين يديه نظرة سديدة مبنية على الملاحظة الدقيقة الواعية والإستنباط الصائب . معنى هذا ان الفكر يستلزم الإنفعالات ولا يستلزمها في آن واحد : يستلزمها محدودة ولا يستلزمها بعد ذلك لئلا تفسده . فالفكر إذن عاطفي وغير عاطفي على حد سواء . والإنسان ، كما يقولون ، ابن عواطفه باعتبارها عوامل الحفز أو الحث على العمل وبذل الجهد وفقدانها يعني الخمود وفقدان الحياة في آخر المطاف . يصدق هذا على الأفراد كما يصدق على الأمم . وقد أدى ذلك ببعض الباحثين إلى أن يعتبروا العواطف أقوى من الفكر السديد في نشوء الرأي العام والشعور المشترك بين أفراد الشعب الواحد وبخاصة في وقت الأزمات حتى قال بعضهم ان من يسيطر على المغنين والشعراء فقد سيطر على مشاعر مجتمعهم ولا يهمه بعد ذلك ان يعرف من يصوغ قوانين المجتمع . ويبدو أن كثيراً من المباديء السياسية والإجتماعية مدينة في سيطرتها على السلوك لقدرتها على التغلغل في أعماق النفس البشرية بنشر وسائل النشر المتيسرة .

ثبت بالفحص المختبري ، منذ منتصف القرن الماضي ، وبخاصة في

أعقاب دراسات العالم الفرنسي Broca (١٨٢٤ – ١٨٨٠) وجود مراكز مخية لغوية في القسم الأمامي الأعلى من مخ الإنسان تميزه عن جميع الحيوانات الراقية الأخرى . ثم توالت الأبحاث المختبرية والدراسات المحقلية التي اعززت ما قد وصل اليه بروكا . وتأتي في مقدمة هذه الأبحاث دراسات عالمي الفسلجة الألمانيين Fritsch (١٨٣٩ – ١٨٩١) و Hitzig (١٨٣٨ – ١٩٠٧) التي أجرياها على أدمغة الجنود الجرحى في أدمغتهم أثناء معركة سيدان ١٨٧٠ في الحرب البروسية الفرنسية . واستقرت منذ ذلك الحين ، لا سيما بنتيجة أبحاث عالم الأعصاب الكندي Penfield منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ان المراكز المخية اللغوية ذات اختصاصات متعددة لكل منها وظيفة لغوية خاصة يمارسها وان تعطيل أحد هذه المراكز عن العمل بسبب خلل فسلجي يعتريه يؤدي حتماً إلى تعطيل وظيفته اللغوية . فهناك مثلاً الركن المخي اللغوي المسؤول عن الكلمات المنطوق بها يؤدي فقده إلى فقدان القدرة على النطق Motor aphaeid مع استمرار قدرته على فهم كلام الآخرين . وهناك أيضاً المركز المخي اللغوي المسؤول عن الكلمات المقروءة . وهناك أيضاً المركز المخي اللغوي المسؤل عن الكلمات المسموعة التي ينطق بها الآخرون يؤدي فقدانه إلى عدم فهم معاني الكلمات التي يتحدث بها الآخرون sensory aphasia مع استمرار قدرته على التحدث .

ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض الباحثين يقسم قشرة مخ الإنسان من ناحية تركيب خلاياها العصبية ، في ضوء علم تركيب خلايا المخ ، Cytoarchitectorics إلى زهاء مئتي منطقة مخية لغوية وحركية وحسية (بصرية وسمعية وشمية الخ) يقع ثلثها تقريباً في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية حيث تقع المراكز المخية اللغوية أو مراكز العمليات العقلية العليا (التذكر والتفكير والخيال والإنتباه) .

ويذهب بعض آخر إلى الجهة المعاكسة فيقسمها إلى مناطق مخية محدودة العدد لا تتجاوز العشر . ويجنح فريق ثالث ، وهم أصحاب الرأي الأكثر اعتدالاً وقبولاً ، نحو تقسيمها إلى خمسين منطقة مخية متخصصة ومتلاحمة ومتكاملة من حيث تركيبها التشريحي ومن ناحية وظائفها الفسلجية .

وثبت مختبرياً أيضاً ، كما دلت أبحاث Hess مثلاً ، على ان التنبيه الكهربائي لمناطق مختلفة تقع تحت المخ وبالتحديد في منطقة الدماغ الأوسط dienicephalon عند بعض الحيوانات يؤدي إلى نشوء حالات انفعالية متنافرة . يثير بعضها مشاعر الخوف والهلع fury ويثير بعض آخر مشاعر الهدوء والطمأنينة . وقد دلت تجارب فسلجية طريفة أجراها Olds و Milner في عام ١٩٥٤ على وجود مراكز دماغية واقعة تحت المخ subcortex مسؤولة عن حدوث الإنفعالات الإيجابية كالفرح مثلاً وأخرى عن نشوء الإنفعالات السلبية المعاكسة واقعة في منطقة هابيوتا لامس تحت المخ . واتضح ، في ضوء ذلك ، ان فقدان سيطرة القشرة المخية على المراكز الدماغية الواقعة تحتها والمسؤولة عن الإنفعالات يجعل الشخص المنفعل يقوم بتصرفات أو يتفوه بكلمات لا يسمح لنفسه إتيانها في حالته الهادئة الممتازة .

وكثيراً ما يأسف على إتيانه إياها ويعتذر عنها بعد زوال فورة الإنفعال بالتعبير الدارج أو عودة القشرة المخية إلى ممارسة عملها الطبيعي بالتعبير الفسلجي .

تصاحب الحالات الإنفعالية علامات جسمية ملحوظة تبدو على قسمات الوجه وتصرفات الشخص وفي تعبيراته اللغوية . وهي ناجمة في الأصل عن إفرازات (هورمونات) الغدد الصم . فمشاعر الغضب مثلاً يرافقها إزدياد في كمية السكر في الدم وتبدل في درجة لزوجته Visitory وتمدد

delation في الأوعية الدموية المنتشرة في الدماغ والقلب والرئتين .

ولهذه الظواهر الفسلجية أهمية بايولوجية كبرى في حشر طاقة الجسم وتحفزه للقيام بعمل معين أثناء الإنقضاض على الخصم أو الإفلات منه . وكثيراً ما يؤدي الهلع الذي ينتاب الإنسان أو الحيوان عندما تصبح حياته مهددة بخطر داهم وفقدان القدرة على تحديه بشكل إيجابي فعال أو التخلص منه إلى حدوث حالة تخشب أو جمود stuperfaction وذلك بفقدان القدرة على الحركة طوال فترة وجود الخطر . معنى هذا أن الحالات الإنفعالية تكون مصحوبة دائماً بتغيرات بايوكيماوية تحدث في الجسم بفعل إفرازات الغدد الصم : endocrine glands تبدو هذه التغيرات في الوقت الحاضر كأنها عارضة عديمة الأهمية ولكنها كانت في الماضي السحيق ذات أهمية بايولوجية كبرى عند الإنسان البدائي القديم . فزيادة السكر في الدم التي أشرنا إليها أثناء الفزع أو الهلع أو الرعب تساعد على زيادة طاقة الجسم الدفاعية . وقد ثبت أيضاً ان الإنفعالات الإيجابية sthenic مثل السرور والتفاؤل والطمأنينة إذا استمرت فترة طويلة من الزمن فإنها تؤدي إلى السمنة وتقلل من إفراز الفوسفات وكلوريد الصوديوم في الجسم . ويحدث العكس عند حصول الإنفعالات السلبية asthenic مثل الكمد والتشاؤم والفزع حيث تزداد الفوسفات في الجسم زيادة ملحوظة مما يؤدي ، مع عوامل أخرى إلى الهزال وتناقص الوزن . كما ثبت أيضاً ان بعض الإضطرابات الإنفعالية يؤدي إلى الإصابة بالبول السكري diabetes وإلى تضخم الغدة الدرقية goistre وإلى حدوث اضطرابات فسلجية في وظائف القلب والهضم . كما ثبت كذلك ، من الناحية المعاكسة ، وجود حالات يتم فيها التغلب على بعض الأمراض باستثارة إنفعالات إيجابية . وحالات التغلب السايكولوجي على الشعور بالألم معروفة . وتفسير ذلك من الناحية

الفسلجية راجع إلى ان عدم الإحساس بالألم أثناء تعرض الشخص مثلاً للتعذيب لسبب رأي يؤمن به هو أن بؤرة الإثارة أو الإنتباه المركز في مراكزه المخية اللغوية المرتبطة بذلك الرأي تبلغ أرفع مستوياتها بحيث أنها بحسب مبدأ الإثارة المتبادلة mutual induction تكف أو توقف عن العمل أو تقمع inpilits البؤرة الدماغية الحسية التي تشمل الشعور بالألم .

دلت الأبحاث الفسلجية الحديثة على وجود ترابط وثيق وأثر متبادل بين جهاز الغدد الصم وبين الجهاز العصبي المركزي لا سيما المخ . معنى هذا ان الغدد الصم تخضع لتأثير المخ كما تخضع سائر أعضاء الجسم وأجهزته . وتؤثر فيه أيضاً . ويتم هذا التأثير المتبادل بطريقة غير مباشرة عبر الأعصاب التي تربط المخ بالغدد الصم وبطريقة مباشرة عن طريق الغدة النخاعية Jeituitary body التي تنظم بدورها وظائف الغدد الصم الأخرى . وبالنظر لثبوت هذا الأثر المتبادل بين المخ والغدد الصم فقد أخذ علماء الفسلجة المعاصرون يستعملون مصطلح الجهاز المخي الغددي neuroendocrine او neurohumoral للتعبير عن عمل الجهازين معاً بشكل غير قابل للعزل من الناحية العملية . وفي هذا تفنيد علمي للإتجاهات الفسلجية المغلوطة الشائعة التي تعتبر جهاز الغدد الصم جهازاً فسلجياً قائماً في حد ذاته وان كل غدة فيه هي الأخرى مستقلة عن غيرها .

ترتبط التغييرات الإنفعالية إرتباطاً وثيقاً باللغة من حيث عوامل إستثارتها ومن ناحية إسلوب التعبير عنها . وتدل الحياة اليومية المعتادة والتجارب المختبرية على ان الكلمات ذات أثر فسلجي عميق في نشاط الإنسان الإنفعالي من الناحيتين الإيجابية والسلبية على حد سواء . وهذا يفسر لنا الأساس الفسلجي لظاهرة الإيحاء suggestion السايكولوجية فالإيحاء بالكلمات أو الإشارات يحوّل بسرعة وسهولة خلايا القشرة المخية اللغوية لدي الشخص الذي يتعرض لتأثير الإيحاء إلى حالة كف مع

إستبقاء بؤرة إثارة قوية تتركز في معاني تلك الكلمات أو الاشارات . يحدث هذا بالطبع وفق مبدأ الإستثارة المتبادلة الذي يخضع له نشاط عمليتي الإثارة excitation والكف inhibition في القشرة المخية بين المراكز المخية اللغوية والحسية من جهة وبين القشرة المخية والمراكز الدماغية الإنفعالية من جهة أخرى . معنى هذا ان ظاهرة الإيحاء تستند سلبياً ، من الناحية الفسلجية ، إلى تجميد عمل غالبية خلايا القشرة المخية من ناحية وتستند إيجابياً من الناحية الثانية إلى نشوء بؤرة إثارة قوية تتركز في معاني تلك الكلمات أو الإشارات كما بينا . أي ان الأداة الفسلجية الجوهرية التي تستند إليها الإيحاء هي تفكك أو بعثرة dissaciation تماسك عمل القشرة المخية اليومي المعتاد الذي تمارسه باعتبارها كياناً واحداً متماسكاً .

ثبت مختبرياً وفي مجرى الحياة اليومية ان باستطاعة الكلمة ان تستثير استجابة جسمية يستثيرها المنبه الحسي المادي الذي تدل تلك الكلمة عليه . فسيلان لعاب الفم يستثار مثلاً عندما يرى الشخص الجائع الطعام أو يشم رائحته وعند التحدث عنه أيضاً . وقد استطاع بعض الإطباء إيجاد اعراض حمل وهمي لدي بعض السيدات عن طريق الإيحاء اللفظي . كما استطاع بعض علماء الفسلجة ان يحدثوا علامات نشوة أو ترنح لدي بعض الأشخاص الذين وضعوهم في حالة نوم جزئي وقدموا لهم أقداحاً من الماء وأوحوا إليهم بالكلمات انها مادة مسكرة أثناء تناولها . وحدث العكس في تجارب أخرى . وقد بدت في إحدى التجارب علامات الإنشراح على سيدة قيل لها عندما كانت في حالة نوم جزئي انها تشم رائحة زكية يتضوع أريجها في حين ان المادة التي شمت رائحتها كانت غاز الامونيا الكريه الرائحة . وتناول بعضهم في تجارب أخرى مادة مرة المذاق على أنها سكر . وخيل لبعض آخر في تجربة أخرى انه

يرى سائلاً أزرق اللون في حين ان لون السائل كان أبيض . وعولج كثير من الأشخاص ضد دوار البحر بالإيحاء اللفظي . واستطاع بعض الجراحين إجراء عمليات جراحية صغرى عن طريق الإيحاء اللفظي دون استعمال التخدير لإزالة الشعور بالألم .

تترك العبارات الدقيقة التي يوجهها الطبيب إلى المريض أثراً إيجابياً في نفسه يساعده على الشفاء إذا توافر العلاج الطبي المناسب وذلك لأنها تؤدي إلى تنبيه مراكز مخية معينة . وتدل المشاهدة على أن أثر تلك العبارات يزداد عندما ينطقها الطبيب بقوة وهدوء ووضوح ويعيدها مرات متعددة في فترات متباعدة نسبياً وذلك لأنها تؤدي في هذه الحالة إلى نشوء وصلات فسلجية ديناميكية في القشرة المخية . ويدخل هذا الاجراء ضمن نطاق العلاج النفسي psychotherapy . غير ان هذا الاجراء ليس مضمون النتائج الإيجابية في جميع الأحوال . فقد يخفق الطبيب أحياناً في الحصول على الثمرة المرجوة لعوامل متعددة ومتشابكة يأتي في مقدمتها خطأ يرتكبه الطبيب نفسه في تشخيص طبيعة المرض أو عند تقاعسه في علاجه العلاج المناسب أو بنتيجة إهماله حالة المريض النفسية ومخالفته قواعد الرعاية أو الكياسة أو فقدانه الحنو أو جعله المريض يفقد الثقة بنفسه أو حين تبدو على محياه انفعالات سلبية كئيبة لأن ذلك كله يؤدي إلى حدوث خمود باتولوجي في عملتين الإثارة والكف المخيتين الأمر الذي يجعل الشفاء متعذراً .

ثبت ان نشاط القشرة المخية يهبط كثيراً عند المرأة أثناء الحمل وفي فترة الرضاعة lactatini وبخاصة إذا كانت المرأة ذات نمط جهاز عصبي مركزي خفيف حيث تقع فريسة للعوامل الإيحائية الخارجية ولأبسط التعليقات . والعبارات التي يطلقها الطبيب مثلاً في كل حالة ما له علاقة بالولادة فتثار مخاوفها ومشاعرها السلبية الأخرى المتصلة بالآلام التي

تتوقع حدوثها عند الولادة . وللتغلب على ذلك نشأ إتجاه جديد في التوليد غير المصحوب بالألم يسمى psychoprophylaxis فحواه ان الولادة (أو الوضع) من حيث هي ظاهرة فسلجية طبيعية لا تكون بالضرورة مصحوبة بالألم . أي أن الألم الذي تشعر به الحامل أثناء الوضع ليس فطرياً ، بل هو إجتماعي مكتسب من الممكن تجنبه إذا بذلت الجهود الملائمة واقتنعت الحامل بذلك عن طريق الإيحاء والإقناع . ومع ذلك فإن المؤثرات الإيحائية اللفظية قد لا تكون فعالة لدى بعض الأشخاص لا سيما أولئك الذين تتغلب عندهم بوضوح المراكز المخية اللغوية على المراكز الحسية المخية وهم رجال الفكر عموماً كما سنرى . ويحدث العكس لدي الأشخاص الذين تتغلب عندهم بوضوح المراكز المخية الحسية على المراكز اللغوية المخية وهم رجال الفن عموماً بما فيهم الشعراء. ولمنزلة الشخص الذي يقوم بعملية الإيحاء اللفظي تحدثاً وبالكتابة عند السامع أو القاريء أثر كبير في نجاح الإيحاء : فالطبيب مثلاً بالنسبة للمريض وكالمدرس بالنسبة للطالب .

يتعرض الشخص الذي توجه إليه كلمات نابية أو قارصة لاهانته أو إزدرائه في ظروف إجتماعية لا تسمح له بالرد عليها بالقول أو الفعل إلى إضطرابات إنفعالية عميقة ربما تؤدي إلى الإنهيار العصبي إذا كان شعوره بالإهانة عميقاً وإذا تكرر حدوثها . والعامل الفسلجي في ذلك هو تعذر تغلبه على الصراع الداخلي الذي يساوره بفعل تحميل عملية الكف المخي عبئاً فسلجياً تنوء به قدرتها الفسلجية . والكلمات الجارحة تحدث تبدلات فسلجية عميقة في المخ لا سيما ذوي نمط الجهاز العصبي المركزي الضعيف ونمط الجهاز العصبي المركزي الطائش وذلك لضعف عملية الكف عندهما . معنى هذا ان الإنهيار العصبي الذي يعتري الشخص المهان هو حالة تقويض فسلجي يحدث بسبب اضطراره إلى كبت إنفعالاته

الجريحة لعوامل اجتماعية محضة حيث تتعرض عملية الكشف المخي عنده لتحمل عبء فسلجي ثقيل تنوء به طاقتها الفسلجية . يحدث ذلك بنتيجة عدم السماح لعملية الإثارة بالتعبير عن نفسها تفادياً لحدوث ملابسات أو متاعب محتملة . وأفضل أساليب التغلب على الآثار السيئة للإيحاء اللفظي هو تنشيط عمل القشرة المخية في ظروف اليقظة بشكل إيجابي فعّال وبكلمات رقيقة مشجعة تبعث الثقة بالنفس . وفي الدراسة بصورة خاصة لا بد من السير المتدرج الصاعد من السهل إلى الصعب وان يعمل المدرس على تدريب عملية الكف عند الطلاب وتعويدهم على الإثارة المتزنة . كما ينبغي للمدرس أن يتذكر دائماً وبخاصة في المراحل الدنيا في سلم التعليم نشوء حالات إنفعالية عنيفة أحياناً يمر بها الطالب في حياته المدرسية وفي مقدمتها استدعاؤه إلى السبورة مثلاً أو توجيه أسئلة محرجة إليه أثناء المناقشة أو الإمتحان . هذه الضغوط السايكولوجية تخلف متاعب كثيرة في الجهاز العصبي المركزي الضعيف والقوي الكائن وعند الفنانين أو مرهفي الحس حيث تتغلب المراكز المخية اللغوية . وإذا رافق ذلك إزدراء المدرس الطالب أو تأنيبه إياه أمام زملائه لإخفاقه مثلاً في إعطاء الإجابة المطلوبة فإن ذلك يؤدي في أغلب الأحيان إلى نشوء إضطرابات انفعالية عنيفة لديه .

يعتبر ميسمر ، الطبيب الفرنسي الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر أول من فطن إلى إستعمال العلاج النفسي عن طريق الإيحاء اللفظي وإن كانت آراؤه المتعلقة بتفسير طبيعة ظاهرة الإيحاء ليست علمية بمقاييسنا الحديثة لأنه اعتبر الإيحاء « قوة » خاصة ناجمة عن تدفقات emanatinis خاصة سماها « السوائل » . ولعل الجراح البريطاني Braid أول من أعطى تفسيراً فسلجياً في عام ١٨٤٣ للأثر التخديري hypnotic الذي يتركه الإيحاء في المريض فيجعله لا يشعر بالألم أثناء تعرضه للعمليات

الجراحية وكان ذلك قبل اكتشاف التخدير الطبي المعروف anaesthesia آنذاك . وكان بريد أول من استعمل مصطلح التخدير hippnosis عن طريق الإيحاء اللفظي . ثم تتابعت الأبحاث الفسلجية في هذا الباب ونشأت في فرنسة مدرستان مختلفتان في تفسيرهما طبيعة التخدير السايكولوجي هما مدرسة Charcot في باريس عام ١٨٧٨ التي اعتبرت التخدير السايكولوجي ظاهرة باثولوجية لا تحدث إلاّ لدي المصابين بالهستيريا . ومدرسة Bernheim التي نشأت في نانسي عام ١٨٨٤ واعتبرت التخدير النفسي الناجم عن الإيحاء ظاهرة فسلجية طبيعية موجودة لدي جميع الأشخاص بدرجات متفاوتة . في أواخر القرن الماضي نشأت في النمسة بجهود فرويد (١٨٥٦– ١٩٣٩) مدرسة التحليل النفسي المعروفة التي اعتبرت الغرائز لا سيما الغريزة الجنسية أساس السلوك واغفلت إلى درجة التلاشي المؤثرات الإجتماعية والأصل الفسلجي لظاهرة الإيحاء النفسي .

يستند التفسير الفسلجي الحديث لظاهرة الإيحاء السايكولوجي إلى نظرية النشاط العصبي الأعلى التي وضعها بافلوف (١٨٤٩ – ١٩٣٦) في مطلع هذا القرن والتي ترتبط بعملية الكف والنوم الجزئي والحالات الإنتقالية التخديرية المتدرجة بين اليقظة والنوم ونقاط للحراسة الفسلجية . وقد أزيل في ضوء هذه النظرية الغموض الذي استعصى على الباحثين حله في تفسير هذه الظاهرة النفسية . فالإيحاء ، عند بافلوف منعكس شرطي بسيط ينفرد به الإنسان وأنه (والإيحاء الذاتي أيضاً autosuggation) يستند فسلجياً إلى نشوء عملية إثارة مركزة في نقطة أو منطقة معينة من القشرة المخية تظهر على هيئة إحساس مثار بفعل عامل بيئي خارجي أو داخلي (يعني انه آت من الأحشاء) أو بفعل أثر trace أحدهما . وان هذه الإثارة تصبح ذات أهمية كبرى تتعذر مقاومتها وبخاصة في القشرة المخية الضعيفة ذات النشاط العصبي الدافيء بسبب المرض مثلاً أو بسبب

ضعف الجهاز العصبي المركزي نفسه . فينتج عن هذه الإثارة القوية ، وفق مبدأ الإستثارة المتبادلة ، أثر سلبي قوي يظهر على هيئة عملية كف تنتاب أرجاء القشرة المخية الأخرى وتعزل عملية الإثارة الآنف ذكرها عزلاً تاماً مطلقاً عن جميع المؤثرات الأخرى . ولهذا نجد الكلمات التي يوجهها الطبيب إلى المريض أو التي يوجهها المنوِّم إلى المنوَّم إيحائياً أو الأوامر الصادرة في هذا الشأن تصل إلى نقطة معينة في القشرة المخية فتستثيرها دون مقاومة تذكر وتؤدي في الوقت نفسه إلى نشوء عملية قمع في أنحاء القشرة المخية الأخرى . معنى هذا ان تلك الأوامر تنعزل تمام الإنعزال عن جميع المؤثرات البيئية الأخرى وتتحول إلى منبه مطلق ينفرد وحده في الميدان ويستأثر دون منازع باهتمام المريض أو المنوّم إيحائياً ويستمر أحياناً فترة طويلة بعد استيقاظه . يتضح إذن ان المنبهات اللفظية والحسية (الكلمات والأحداث الأخرى مثلاً) تؤدي إلى حدوث عملية إثارة قوية في المركز المخي الذي توجّه إليه وتنتشر عبر المراكز الدماغية التي تقع المخ وتجاوره :

adjacent subcortex التي تقع فيها المراكز العصبية المسؤولة عن النشاط الإنفعالي والغريزي . كما تنتشر أيضاً إلى الغدد الصم التي ترتبط فسلجياً بالقشرة المخية وبالجهاز العصبي المستقل كما بيّنا .

ينقسم الناس عموماً ، في ضوء العلاقة أو الصلة بين مراكزهم المخية اللغوية ومراكزهم الحسية من جهة وبين قشرتهم المخية (بمراكزهم اللغوية والحسية) المسؤولة عن العمليات العقلية العليا — التذكر والتفكر والخيال والإنتباه — وبين الأقسام الدماغية التي تجاور القشرة المخية وتقع تحتها والمسؤولة عن الحياة الوجدانية أو الوظائف العقلية لدينا من جهة ثانية إلى ثلاثة أنماط كبرى على وجه العموم هي :

أولاً : نمط الفنانين على اختلاف أصنافهم بما فيهم الشعراء والكتاب

حيث تتغلب عندهم المراكز المخية الحسية (لا سيما البصرية) من ناحية تطور خلاياها العصبية على المراكز المخية اللغوية من جهة وتتغلب عندهم مراكز الإنفعالات الدماغية على القشرة المخية أساس العمليات العقلية العليا فيدركون بمشاعرهم المرهفة البيئة التي يعيشون فيها ، الإجتماعية والطبيعية إدراكاً حياً بإعتبارها كياناً متماسكاً ويعبرون عنها بأحاسيسهم الفضفاضة. أي انهم يستندون في إدراك البيئة وفي التعبير عنها على مدركاتهم الحسية أو الصور الذهنية الطريقة الحية الذاهبة لأعلى الرموز والمعادلات الرياضية كما هي الحال عند المفكرين كما سنرى . فينظرون إلى ظواهر الطبيعة والمجتمع بتلاحمها وترابطها العضوي ويعبرون عنها بصور ذهنية حسية مترفة زاهية (وان كانت تخالف الواقع) دون أن يجزئوها أو يفككوها . وفي الشعر العربي أمثلة رائعة نذكر مها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر .:

قال أحد الشعراء .

الصبح غرتــه وشعر عذاره ليل ونبت الشيب فيــه نجوم

وقال الفرزدق :

وتقول كيف يميــل مثلك للصبا وعليك مــن سمته الحليم عذار
والشيب ينهض في السواد كأنــه ليــل يصيــح بجانبيــه نهار

وقال المتنبي :

وذكي رائحــة الرياض كــلامها تبغي الثناء على الحيا فتفوح
جهد المقل فكيف بابن كريمة توليه خيراً واللســان فصيح

وقال أيضاً :

وأقبل يمشي في البســاط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى النجم يرتقي

وقال أيضاً :

وغـالبـه الأعـداء ثم عـنوا له كما غالبت بيض السيوف رقاب
لا ملك إلاّ أنت والملك فضلة كأنك سيـف فيـه وهو قراب

و

وقال أيضاً :

ومن سر أهل الأرض ثم بكى أسى بكى بعيـون سرها وقلوب

وقال كذلك :

فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه ولا رجلاً قـامت تعانقه الأسد

وقال علي بن محمد الكوفي :

متى ارتجي يوماً شفاء من الضنا إذا كان جـانيه عليّ طبيبي
كأن سواد الليـل في ضوء صبحه سواد ثياب في بيـاض مشيب

وقال الجواهري :

سلام عـلى مثقـل بالحـديـد ويشمـخ كالقـائـد الظافر
سلام على الجاعلين الخوف جسوراً إلى الموكـب العـابـر
كـأن الحـديد عـلى معصميـه مفـاتيـح مستقبـل زاهـر

وقال المتنبي :

كـأن الهـام في الهيجـا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقال أيضاً :

كـأن عـلى الجماجـم منـه ناراً وأيـدي القوم أجنحـة الفراش

وقال آخر :

لا يكشف الغمـــاء إلاّ ابن حرة يرى غمـــرات الموت ثم يزورها
نقاسمهم أسيافنـــا شـــر قسمـــة ففينا غواشيها وفيهـــم صدورها

وقد تصل هذه الصورة الذهنية الرائعة إلى درجة مسخ الحقائق الموضوعية وتشويهها وتبدو على هيئة ملق مبتذل . وقد يناقض الشاعر نفسه فيمدح الشخص أحياناً مدحاً مبالغاً فيه ثم يوسعه أحياناً أخرى بامض اللوم وأقسى عبارات التقريع والذم . وهو صادق المشاعر في الحالتين لأنه يرى الناس باحساسية . وكلما كان الشاعر مخلاً كان ذلك أوضح في شعره . وفي شعر المتنبي من الأمثلة على ذلك الشيء الكثير ، استمع إليه يخاطب كافوراً :

قضى الله يا كـــافور انك أول وليس بقاض أن يرى لك ثان
لو الفلك الدّوار ابغضـــت سعيه لعوّقـــه شيء عـــن الدوران

ولكن بالفسطاط بحـــراً أزَرْتُـــه حياتي ونصحي والهوى والقوافيا
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً به ويسير القلب بالجسم ماشيا
قواصد كافور تـــدارك غيـــره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنـــا إنسان عيـــن زمانه وخلّت بيـــاضاً خلفهـــا ومآقيا
أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً إليه وذا الوقت الذي كنت راجيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا
إذا كسب الناس المعـــالي بالندى فإنك تعطي في نداك المعـــاليا
وتحتقـــر الدنيـــا احتقـــار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا
ومن قول سام لو رآك لنســـلـــه فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

وبحر أبو المسك الخضم الذي لـه ... على كل بحر زخـرة وعباب
وأوسع ما تلقاه صـدراً وخلفـه ... رِمـاء وطعن والامام ضراب
يقود إليـه طاعـة الناس فضله ... ولو لم يقـدهـا نائل وعقاب
أيا أسداً في جسمـه روح ضيغم ... وكم أسد أرواحهـن كلاب
ولا ملك إلاّ أنت والملك فضلة ... كأنك سيف فيه وهو قراب
وغـالبـه الأعـداء ثـم عنوا له ... كما غالبت بيض السيوف رقاب
وان مديح النـاس حـق وباطـل ... ومدحك حق ليس فيه كذاب
وما كنت لولا أنت إلاّ مهـاجراً ... له كل يـوم بلـدة وصحاب
ولكنـك الدنيـا أيّ حبيبـة ... فما عنك لي إلاّ إليـك ذهب

أنـت أعـلى محلـة أن تُهنّى ... بمكان في الأرض أو في السماء
ان في ثوبـك الذي المجـد فيـه ... لضيـاء يزري بـكـل ضيـاء
يا رجاء العيـون في كـل أرض ... لم يكن غيـر أن أراك رجائي

ترعرع المـلك الأسـتاذ مكتهلاً ... قبل اكتهال ، أديباً قبل تأديب
مجرّباً فهماً مـن قبـل تجربة ... مهذباً كرماً من غير تهذيب
يدبّر الملك مـن مصر إلى عدن ... إلى العراق فأرض الروم فالنوب
إذا أتتها الريـاح النكب من بلد ... فمـا تهب بهـا إلاّ بترتيب
ولا تجـاوزهـا شمس إذا أشرقت ... إلاّ ومنـه لهـا إذن بتغريب

ثم استمع اليه يذمه :

أميناً وإخلافـاً وغـدراً وخسـة ... وجبناً أشخصاً لحت لي ام مخازيا
وتعجبني رجـلاك في النعـل انني ... رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وانـك لا تدري ألونـك أسود ... من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
فان كنت لا خيراً افـدت فانني ... افدت بلحظي مشفريك الملاهيا

ومثلك يُؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهل السواد يُدرّس انساب أهل الفلا
وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد
لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلاّ وفي يده من نتنها عود

ثانياً : نمط المفكرين على اختلاف تخصصهم العلمي حيث تتغلب عندهم المراكز المخية اللغوية من ناحية تطور خلاياها وهي المسؤولة عن الوظائف العقلية العليا على المراكز المخية الحسية من جهة ويتغلب المخ من ناحية تطور خلاياه العصبية على الأقسام الدماغية التي تقع تحته والمسؤولة عن الإنفعالات من جهة أخرى ، فيدرك هؤلاء الطبيعة والمجتمع عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية ويفككونها إلى عناصرها الأولية ليفهموا جوهرها ويكشفوا عن ارتباطاتها والقوانين التي يخضع لها سلوكها . ولهذا نجد المصابين بالإضطرابات العصبية من هؤلاء يقعون في العادة فريسة لمرض الهبوط النفسي أو الخدر psychasthenia وهو نوع من اضطرابات الفكر الباثولوجية تبدو على شكل تفكير متزمت جاف وعلى هيئة فقدان تام بالحياة الوجدانية والشعور بتفاهة الحياة والتخاذل أمام مصاعبها بالإضافة إلى نشوء المخاوف وعلامات المعرفة المنحرفة العقيمة للبيئة المحيطة والبالغة في « العقلانية » المتطرفة أو ما يسمى chewing of the end وبالتخلف المتطرف في التعبير الوجداني الأمر الذي يؤدي إلى الإنتحار أحياناً كما حدث للمفكر الفرنسي أوكست كومت (١٧٩٨ –

١٨٥٧) . يقابل هذا عند الفنانين التعرض للإصابة بالهستيريا التي تعبر نفسها بانفعالات متسرعة باثولوجية وتصرفات بدائية غير ناجحة ناضجة على غرار ما هي عند الأطفال . أي بالتغلب المفرط الباثولوجي لنشاط المراكز التي تقع تحت المخ على المخ وبالتغلب المفرط الباثولوجي أيضاً للمراكز المخية الحسية على المراكز اللغوية الأمر الذي يجعل هؤلاء يعانون من أوهام باثولوجية واندفاعات متسببة بصاحبها تحطيم عميق للتوازن العصبي يتحول أحياناً إلى شلل وإلى انكماش باثولوجي contracture أو فتور letharpy ونوبات عصبية convulsive fists وانفعالات طائشة متهورة أحياناً أخرى .

ثالثاً : النمط المعتدل أو الأوسط وهم أغلبية الناس حيث تتكافأ عندهم قوة المراكز المخية اللغوية والمراكز المخية الحسية من ناحية تطور خلايا وحيث تكون العلاقة الديناميكية بين المخ وما تحته بشكلها المتزن لمعتدل . ويلاحظ من بين هؤلاء أقلية ضئيلة يبلغ عندها مستوى التطور المتكافيء للمراكز المخية اللغوية والحسية ارفع درجاته يصاحبه أيضاً تطور عال متكافيء في خلايا المخ والأقسام الدماغية التي تقع تحته افيبرزون في كل من العلم والفن على حد سواء : ليونارد دافنشي مثلاً وغوتيه (١٧٤٩ – ١٨٣٢) ولوموزونوف (٧١١ – ١٧٦٥) .

أهم مصادر البحث

1) Anrep, G.V., translator, Conditioned Reflexes, Dover, New York, 1960.
2) Yantt, W.H., translator, Lectures on Conditioned Reflexes, Lawrence and washart, London, 1963.
3) Matzke, H.A., Synopsis of Neuroanatomy, Oxford University Press, 1967.
4) Morozov, G.V., Nervous and Psychic Diseases, Mir Publishers, Moscow, 1968.
5) Penfield, W., Speech and Brain Mechanisms, Princeton University Press, 1959.
6) Thomson, R., The Pelican History of Psychology, Penguin Books, London, 1968.
7) Woodworth, R.S., Psychology, Methuen, London, 1968.

The Emotional Aspect of Human Life

Its Physiological Bases and Social Conditions

Nouri Jaffar, Ph.D.

All mental processes may be conditionally divided into the three basic groups, although they are inseparably interconnected and represent man's indivisible mental activity : (1) intellectual processes conditioning man's cognitive activity. (2) Emotional processes underlying man's attitude to the surrounding phenomena, and (3) volitional processes determining man's volitional acts.

The emotions, which express man's attitude to the surrounding world, mean that man does not merely perceive his surroundings with a certain emotional attitude. He manifests desires and strivings to make certain changes in them. Emotions : joy, sorrow, rage, love, etc. play an important part in the life of man. Fatigue sets in at different periods depending on the emotional attitude to the work being done. If the work is interesting, fatigue may long be delayed.

In their physiological action the emotion are customerily divided into two large groups : sthenic and asthenic. The first group is pleasant. The asthenic emotions weaken the processes of assimilation, reduce the tone of cerebral cortex and the force of the basic cortical processes- excitation and inhibition.

The physiological basis of elementary emotions, to which the mood or frame of mind belongs, is the activity of the subcortical centres. More recently, physiologists have abtained evidence permitting new approach to the problem of the mechanisms of emotional reactions. Hess showed that stimulation of different areas of the cliencephalon in animals produced too opposite types of reaction : fear and fury. Later Olds and Milner (1954) have described the discovery in the brain of centres where stimulation produces a « rewarding effect » and of centres where the effect is an opposite one of punishment.

د. نوري جعفر